٥٤ إبراهيم الدسوقى والتحذير من بيع الأخلاق

هذا الرجل الصالح من عترة النبى ﷺ، وما أجمل الحديث الذى يدور حول هذه العترة الشريفة.. وحديثنا هذه المرة عن القطب الصوفى برهان الدين إبراهيم ابن عبد العزيز الذى ينتهى نسبه لأبيه إلى السيدة فاطمة الزهراء، وزوجها الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهما. ونسبه لأمه ينتهى إلى القطب الصوفى أبى الفتح الواسطى، الذى أدى دوراً كبيراً فى تأسيس وتشييد بنيان الطرق الصوفية فى مصر.

ولد هذا القطب الصوفى بمصر فى مدينة «دسوق» سنة ٦٢٣ هـ، ولذلك عُرِفَ بإبراهيم الدسوقى. وتربى فى بيئة مصرية خالصة. بين جماعة من أهل الوَرَع والتقوى، فشب محباً للعلم، حريصاً على التدين، فقد درس علوم اللغة والدين، وحفظ القرآن والحديث، وتأمل أصول العقيدة والفقه، وتدبر جوانب التفسير، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى صبيًا، وشابًا ناضجاً.

وتذكر المصادر التاريخية ـ وفى مقدمتها ما سجله الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه «المجددون فى الإسلام» أو الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» من أن هذا القطب دخل الخلوة وهو فى الخامسة من عمره، ولما شبَّ عن الطوق واشتد عوده بدأ المريدون والأتباع يتوافدون عليه، وفى مقدمتهم السيد أبو النصر صاحب الضريح المجاور لضريحه فى مدينة دسوق التى ينتسب إليها هذا القطب الكبير.

وظل معتكفاً فى خلوته حتى مات والده عام ٦٤٦ هـ، فغادرها لأول مرة وكان

عمره إذ ذاك ثلاثة وعشرين عاماً. بعد أن ألح عليه أتباعه ومريدوه على ترك هذه الخلوة، والخروج إلى الحياة العامة، يُدَرِّسُ ويُعَلِّمُ، ويُفَقِّه، فتركها ليتخذ له مكاناً بجوارها.

وقد عُرفت طريقته بالطريقة «البُرهامية» نسبة إلى اسمه «إبراهيم» أو الطريقة البرهانية نسبة إلى صفته «برهان الدين» أو الطريقة «الدسوقية» نسبة إلى مسقط رأسه «دسوق». وقد كان لهذه الطريقة أسلوبها الذى يختلف عن أساليب غيرها من الطرق الصوفية: والتى يمكن تمييز أتباعها عن الطريقتين «البدوية» و«الرفاعية» حيث كان أتباع وأنصار إبراهيم الدسوقى «الطريقة البرهامية» - كانوا يرتدون العمامة الخضراء، بينما كان أنصار الطريقة البدوية يرتدون العمامة الحمراء، ومن قبل كان أنصار الطريقة الرفاعية يرتدون العمامة السوداء.

والحق أن أتباع القطب إبراهيم الدسوقى قد بالغوا فى تقديس أعماله وأفكاره، بل وإن هذا المنهج اتبعته بعض الكتب، الأمر الذى جعل الدكتور عامر النجار يحذر منه فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر» قائلا عن واحد من الكتب التى اهتمت بالتأريخ لهذا القطب قائلا: «ينبغى أن نأخذ من هذا الكتاب بحذر، وأن نتوقف عندما نجد الأسطورة تستشرى خلال صفحاته..».

والجدير بالذكر أن الجانب العملى من تصوف القطب إبراهيم الدسوقى يظهر فيه بوضوح التصوف السنى، فقد كان يقول لمن يطلب فيه سلوك الطريق: «يا فلان. اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسُنة نبيه محمد ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. وأن تتبع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية، والامتثال بطاعة الله عز وجل قولاً وفعلاً واعتقادا...».

وكثيراً ما كان ينصح أتباعه باتباع الشريعة الغراء فيقول: «اسلك المناهج السديدة، والشريعة القويمة، التى من عمل بها كان عمله مضموناً، فإن مَنْ سلكها واتبع أمرها نجا، فإن الله أمركم أن تطيعوا ولا تعصوا، وأن تستقيموا ولاتلهوا».

إلى أن يقول فى قوة لأتباعه، ناصحاً لهم بالتمسك بأهداف الشريعة: «مَنْ أحَبَّ أن يكون من ولدى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة، وليختم عليها بخاتم الحقيقة، وليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرارات.. الشريعة أصل، والحقيقة فرع. فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفى، وجميع المقامات مندرجة فيها...».

فالجانب العملى من تصوف القطب إبراهيم الدسوقى يقوم على العمل بكتاب الله تعالى، وسُنة رسوله ﷺ، كما يقوم على المكابدة والمجاهدة.. وذلك بالإكثار من الصيام والقيام، والذكر، وقراءة القرآن، وبالتسبيح والدعاء والإبتهال من جهة، وعلى الزهد فى الدنيا، والترفع عن متعها ومباهجها ولذائذها من جهة أخرى.

وبرغم أن أفكار القطب إبراهيم الدسوقى واضحة المعالم، فإن أبناء طريقته على مر العصور قد خالفوا ذلك مبالغين. ويشير الدكتور عامر النجار فى كتابه «الطرق الصوفية فى مصر» قائلا: وإذا كان بعض أبناء الطريقة البرهانية ـ نسبة إلى مؤسسها برهان الدين إبراهيم الدسوقى ـ فى عصرنا هذا قد خالفوا طريق شيخهم البرهانى الكبير، وبعدوا عن تصوفه العملى السنى، الداعى إلى العمل بكتاب الله تعالى، وسُنة نبيه الكريم، فإن شيخهم فى القرن السابع الهجرى كان يخشى هذا اليوم، ويدعو أتباعه.. ألا يُسيئوا إلى طريقته، أو يدنسوها، أو يبتدعوا البدع والخزعبلات.. يقول القطب إبراهيم الدسوقى لمثل هؤلاء الأتباع: «يا أولادى، ناشدتكم بالله، ألا تسيئوا إلى طريقى، ولا تلبسوا فى تحقيق، ولا تدلسوا، ولاتدنسوا.. وإن كنتم صحبتمونا لتأخذوا منا أوراقاً من غير عمل فلا حاجة لنا بكم..».

ولطالما حَذر أتباعه من مخالفة طريقه قائلا: «وإنى أبرأ إلى الله ممَّن يأخذ على الطريق عوضاً من الدنيا، ويتلف طريقى من بعدى، ويخالف ما كنت عليه أنا وأصحابى. اللهم إن كان أحد أصحابى يفعل خلاف طريقى فلا تهلكنى بذنوبهم.. فإن الله يبغض الفقير الذى يبيع أخلاف أهل الطريق بلقمة.. وطريقي إنما هو طريق تحقيق وتدقيق.. فيا أولادى، إن كنتم أولادى وخالفتمونى فأنتم كاذبون..».

إن أساس الطريقة البرهانية التى سَنَّها القطب إبراهيم الدسوقى تتلخص فى هذه الكلمات: «حقيقة الطريق لا يقدر عليها إلا كل مجاهد للنفس، مجالد لهواه..».

أو كما يقول الدسوقى نفسه: «واعلم أن الطريق إلى الله تفتت الأكباد، وتضنى الأجساد، وتدفع الشهاد، وتسقم البدن، وتذيب الفؤاد.. فهيمان القلب فى باطن الأمر، ونشآن السكر فى مداومة الذكر، ومجاهدة النفس والحواس والحس فى حصول الأُنس.. وهو الهيمان الحقيقى المشكور الذي هو أفضل من هيمان كل وادٍ، ودأب مبرور، والمحافظة على السنن والفروض، والتأهب يوم العرض.».

والطريقة كلها عند الدسوقى ترجع إلى كلمتين: «تعرف ربك وتعبده»... فمن قبِلَ ذلك عنده.. فقد أدرك الحقيقة والشريعة.

ونظرا لسعة فقه وعلم القطب الدسوقى وتقواه وورعه عينه الملك الكامل محمد الأيوبى شيخاً للإسلام، فقبل المنصب، وقام بمهامه على خير وجه، ولكنه رفض أن يتقاضى عن ذلك أجراً، بل وهب العائد المادى لهذا المنصب الجليل لفقراء المسلمين، وظل يشغل هذا المنصب الدينى فترة من الزمن، بعدها تفرغ كلية لتلاميذه ومريديه وأتباع طريقته.

وعلى عادة غيره من أقطاب الصوفية، كان الدسوقى شجاعاً، واضحاً، صريحاً، لا يهاب الحكام، ولا يخشى فى الله لومة لائم، ومن ذلك ما نقرؤه بأن الدسوقى أرسل للسلطان الأشرف رسالة شديدة اللهجة بسب ظلم اقترفه مع الشعب، فغضب السلطان، وأرسل يستدعيه للمقابلة. ولكن الدسوقى رفض الذهاب إليه قائلا: «إنى هنا، ومن يريدنى فعليه الحضور للقائى». ولم يجد السلطان مفراً من النزول على إرادة هذا القطب، لما عرفه عن قدره ومكانته عند الناس، فوفد إليه واعتذر له». وقد أحسن الدسوقى استقباله، وبشَّره بانتصار وشيك، وفعلا انتصر على الصليبيين، وقضى على بعض معاقلهم فى عكا..».

وتتفق كل المصادر التى أرخت لحياة القطب إبراهيم الدسوقى على أنه ظل أَعْزَبَ، واهباً وقته للتصوف والتعبد والتأمل، وأنه إلى جانب ذلك كان يجيد عدة لغات، فى مقدمتها السريانية والعبرية، وأنه كتب عدداً من المؤلفات فى الفقه والتوحيد.. وأنه ظل على هذا النحو حتى كانت وفاته سنة ٦٧٦ هـ وهو فى الثالثة والأربعين، حيث دُفن فى المكان الذى كان فيه مُصَلاَّه.

* * *